

أحمد توفيق المدني التونسي الجزائري المصلح والمناضل من خلال مذكراته

(1915-1925)

د. صالح علواني

باحث في التاريخ والتراث المغاربي - تونس

Salah.alouani@gmail.com

Salah.alouani@voila.fr

سيكيني موضوع بحثنا في هذه المرحلة ب تقدم أحد رجالات القلم والفكر ممن جمعوا بين النضال السياسي والاجتماعي والإصلاح الديني منهاجا في الحياة. فالنضال عنده مشروع متكامل متعدد الأبعاد إذ هو ديني واجتماعي وسياسي وثوري. والطريف في الأمر عند أحمد توفيق المدني أنه بدأ نضاله منذ نعومة أظفاره. فهو القائل: "خلقت نائرا. حينما تكون الثورة أكون وتكون ثورة حينما أكون"¹. هذه الشخصية النادرة لم تحظ بالدراسة من قبل لأسباب بعضها موضوعي والآخر ذاتي. لكن الوقت حان كي يتناول المؤرخون وكل المهتمين بالشأن المغاربي بالدرس كفاح هذا الرجل المصلح الذي ناضل منذ نعومة أظفاره من أجل تحرير بلديه تونس والجزائر وكافة المغرب العربي. ستكون البداية من خلال مذكراته التي عنوانها "حياة كفاح" وجاءت في أربعة أجزاء ، في طبعة للمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة 1988 وهي الطبعة الثانية التي اشتملت على :

- الجزء الأول في تونس منذ الولادة إلى 1925
- الجزء الثاني في الجزائر من سنة 1925 إلى 1954
- الجزء الثالث خلال الثورة من 1954 إلى 1962
- الجزء الرابع بعد الثورة المسلحة، من 1962 إلى 1973 وهو تاريخ إنجاز الكتاب (لم ينشر).

سنقتصر في هذا العمل على التعريف بأحمد توفيق المدني ولو بشكل مقتضب من خلال مذكراته التي امتدت ما بين 1905 و 1973. وسنهتم في هذه المرة بفترة كانت جد حساسة في تكوين شخصيته المتأهبة والتي سماها بنفسه فترة التحفز ثم الوثبة أي المرحلة التونسية وستوقف عند أولى بوادر نشاطه على تراب بلاد آباءه وأجداده الجزائر وبالتحديد من قسنطينة. منهجيا سنكتفي باعتماد النص كما جاء على لسان كاتبه ولن ندخل حاليا في

¹ أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، 4 أجزاء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، الجزائر 1988، ج1، ص.5.

أي نوع من نقد الوثيقة أو التعليق عليها خاصة ونحن لدينا مؤشرات كافية على علو صدقية ما جاء بها، إذ كان أحمد توفيق المدني يقول : " كان ذلك أول حديث في أول يوم، بادرت ليلا بتسجيله حسب عادتي"². فهي قراءة من الداخل نكتفي من خلالها بإبراز الشخصية الثائرة والمتشعبة "فطريا" بالوطنية الصادقة والمتوثبة دون حساب للدفاع عن الوطن الذي جاء عند أحمد توفيق المدني في أوسع معانيه، أي المغرب العربي وإن كان مسرحه العملي تونس ثم الجزائر³.

1 أحمد توفيق المدني : الصبي الثائر والمناضل

ولد أحمد توفيق المدني بتونس في الأشهر الأخيرة من القرن التاسع عشر وذلك يوم غرة نوفمبر سنة 1889 الموافق 24 جمادى الثانية سنة 1317 هجرية. هو سليل عائلتين من المهاجرين الجزائريين. أمّا أبوه محمد فهو من مواليد مدينة الجزائر وتلقى علومه العربية بالجامع الكبير عندما لا تزال به " بقية من كبار علماء الجزائر". وقد عرف بنزاهته وأمانته واستقامته وثرائه وهو ممن أقبلوا على العلم في جامع الزيتونة ليتولى بعد ذلك إمامة جامع زاوية الشيخ ابراهيم الرياحي. أما جده فكان شيخ بلدية العاصمة الجزائرية (أمين الأمناء). هاجر جده ووالده إلى تونس عندما اشتد الاضطهاد الفرنسي وكان ذلك سنة 1870⁴ قبل الثورة الكبرى التي قادها الأخوين مقراني. كما مثل المناخ العائلي الذي احتضنه وهو صغير المدرسة الأولى التي أنشأته، والمعلم الأول الذي فتح في وجهه " أبواب الحياة الحرة الشريفة حياة التضحية والجهد والفداء"⁵.

بدأ أحمد توفيق المدني حياة كفاحه وهو صبي، وقد اهتمت أمه بتعليمه أولى مبادئ الفضيلة واجتناب الرذيلة ولم تتركه يختلط ب" الزوافرية" كما تسميهم أمه بل لازم البيت وتعلم قصار السور وبعضا من الأحاديث النبوية وهكذا " كنت أكبر من سني بأعوام عديدة" كما يقول. أدخله والده الكتاب وعمره خمس سنوات وتميز وهو يتابع دروس الكتاب بحفظه المتقن وحسن سيرته فلم ينل من المؤدب إلا الرضى ومن أقرانه الذين كانوا ينادونه ب"سي

² المدني، م.م.، ج1، ص.8.

³ " ما دمت بالجزائر فسأكون بين العاملين وإن رجعت لتونس فسيكون كفاحي رسميا، قولا وعملا لفائدة المغرب العربي كافة، لا نفرق بين جزء من أجزائه"، المدني، م.م.، ج2، ص.9.

⁴ 1870 تاريخ صدور ما يعرف ب"أمر كراميو Le décret Crémieux" بتاريخ 24 أكتوبر بمقتضاه تمنح الجنسية الفرنسية لليهود الجزائري. وفي مارس 1871 اندلعت الثورة التي قادها الأخوين مقراني وذلك بسبب مشروع افتكاك الأراضي من أصحابها وتمتيع المستعمرين بها وكانت مساحتها تتجاوز الـ 500 000 هك. وانتهت بقتل الزعيم الثائر مقراني في 5 ماي من نفس السنة.

⁵ المدني، ح.م.، ج1، ص.17.

المدني " إلا التقدير. انتهت فترة الكتاب وأصبح على إثرها أحمد توفيق المدني قادرا على قراءة كل الصحف التونسية ولم يجتز بعد سن التاسعة. وتفتق ذهنه "على السياسة العامة وأساليبها وأكاديبها" ⁶ كما يقول. وبدأ بمجادلة من حوله من أتراه لكنه وجد أن لا أحد منهم يطلع على جريدة أو يتكلم في السياسة كلمة.

نشأ لدى أحمد توفيق المدني وعي مبكر بضرورة التصدي للظلم والقهر. وصادف أن كان أول من دفع ثمن ثورة أحمد الصبي هو مؤدبه الذي يعلمه القرآن في الكتاب. لقد انحال هذا الأخير ذات مرة ضربا مبرحا على أحد الصبيان. وكان الولد يصيح ويستغيث كأنه يطلب النجدة. وفعلا وجدها في رفيقه الذي انقض على المؤدب ليشل حركته منتصرا له. وهكذا تلقى أحمد أول درس عملي في حياته قائلا : " إن الثورة العاتية في سبيل الحق: ضد الظلم والطغيان، تقضي على بطش الظالمين" ⁷.

هكذا كانت بداية أحمد توفيق المدني وكانت مؤشرا لا لبس فيه عن نضج مبكر وحس مرهف وتحفز إلى النضال ورفض الظلم مهما كان مآتاه وسيوضح هذا التوجه ويزداد صلابة وعمقا مع مرور الزمن وإمعان المستعمر في بطشه وجبروته. لقد نشأ رافضا للظلم وكان الظلم يومئذ هو القاعدة والعدل يومئذ هو الشذوذ. نشأ أحمد توفيق المدني نائرا على كل عدوان يقترفه قوي متحجر على ضعيف لا يملك قوة الدفاع مهما كان جنس أو لون أو دين ذلك الضعيف المهان. هذه النظرة المفتحة على الآخر، هذا الآخر الذي ليس بالضرورة أن يكون عربيا مسلما، هي التي ميزت شخصية أحمد توفيق المدني المناضل، الراض للظلم مهما كانت ضحيته وأينما كانت. فلا غرابة أن ينشأ الصبي على ذلك حساسا لآلام الآخرين وهو الذي ما كان يسمع من الوالدين والجدّ ومن الخال إلا أحاديث الهمجية والوحشية والفظاعة التي ارتكبتها الأنداس الفرنسيون بعد جرمتهم النكراء بسيدي فرج سنة 1830. "كنت أتصور يومئذ وأنا الصبي الضعيف أنني قد تقمصت شخصية الزعيم...أصول وأجول بين صفوف الأعداء، أمزق شملهم...أخلص الناس من الظلم والطغيان، وأحرر الأرض من طاغوت الاستعمار وأدناسه" ⁸.

⁶ "وتفتق ذهني عن السياسة العامة وأساليبها وأكاديبها...كنت مناظلا صبيا". المدني، م.م.، ج1، ص19.

⁷ المدني، م.م.، ج1، ص. 21

⁸ إضافة إلى ما سمعه عن الجزائر كان أحمد توفيق المدني - وهو ابن السادسة- شديد التأثر وهو يستمع إلى ما يتداول حول آلام شعب جنوب افريقيا . المدني، م.م.، ج1، ص. 8.

كان كل عدوان جديد⁹ بمثابة حطب جاف يزيد نيران قلبه الموقدة التهاوبا وتزداد ثورته وهو تلميذ بالمدرسة في وسط محدود وضيق. لكن حماسه الوقاد دفعه إلى مخاطبة التلاميذ مطلقا لعاطفته العنان " فتنفجر مهددة هوجاء¹⁰. هذا النشاط السياسي الممزوج بحماس الشباب الوهاج جعل منه محط أنظار المستعمر الذي شعر بخطورة انتشار أفكاره بسرعة. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى كان لا بدّ من وضع حدّ لتحركات الشاب أحمد. وبالفضل أودع السجن وعمره 16 سنة وكانت التهمة الموجهة إليه بل التي زادت من إصراره على النضال بكل ثقة في النفس هي العمل ضد السلطة الفرنسية. وقضى به أربع سنوات. وخرج منه في نوفمبر سنة 1918، أي عند نهاية الحرب.

يقول أحمد توفيق المدني : " غادرت سحني وأنا أضطرم نارا وقد عقدت العزم على ولوج باب الجهاد من جديد إنما على أسس أخرى ومع رجال آخرين وقد غيرت الحرب العالمية الأولى المفاهيم وقلبت الأوضاع...مع بقاء الهدف الأساسي ثابتا...ألا وهو تحرير الأوطان وبعث الأجداد واحتلال مكان لائق بين شعوب الأرض ودولها¹¹. ثم يضيف : " إن جماهير الشعب التونسي وأغلب الطلاب الجزائريين الذين كانوا يرتادون جامع الزيتونة هبوا جميعا لتحيتي بمناسبة الافراج عني. وكانت وفودهم زرافات ووحدا نا طيلة أيام عدة " ¹². كل ذلك زاد من مكانته ومن إشعاعه بين الناس. وجاء يوم 1 فيفري 1920 فكان يوما عظيما في تاريخ حياته. " كان يوم تحرير الصحافة التونسية من عقابها وازدانت الآفاق الفكرية والسياسية والأدبية بتونس " ¹³. وبالفضل استفادت تونس كباقي المستعمرات الفرنسية من الجوّ التحرري نسبيا الذي ساد أجواء نهاية الحرب العالمية الأولى ونقاط ويلسن الأربعة عشر ومؤتمر فرساي. إذ عادت صحف إلى الصدور بعد حجبتها وظهرت أخرى. وفعلا لقد شعر أحمد توفيق المدني بالسرور والغبطة خاصة لما رأى فصلا ممتعا، كان قد ترجمه، يعري السياسة الفرنسية بتونس ويشنع بوسائلها وأهدافها يصدر بجريدة "المشير"¹⁴.

⁹ 31 ماي 1911، احتلت فرنسا مدينة فاس بالمغرب الأقصى وفرضت الحماية على البلد سنة 1912، ثم كان الاستيلاء على مدينة طرابلس الغرب في 29 سبتمبر 1911 من قبل الإيطاليين...دولة النمسا والمجر تمتلك ظلما وعدوانا اقليمي البوسنة والهرسك.

¹⁰ نلاحظ النزعة الرومنسية السائدة آنذاك عند الأوساط المثقفة بالخصوص.

¹¹ المدني، م.م.، ج1، ص. 150.

¹² المدني، م.م.، ج1، ص. 151.

¹³ المدني، م.م.، ج1، ص. 162.

¹⁴ كان المقال الأصلي مكتوبا بالفرنسية وهو لأحد الصحفيين الفرنسيين المناوئين للاستعمار. وعلى إثر صدوره مترجما أعيد منع الجريدة مجددا من الصدور. المدني، م.م.، ج1، ص. 164.

أما أهم خطوة في حياة أحمد توفيق المدني فتمثلت في انضمامه رسمياً إلى أهم معقل للنضال السياسي المهيكّل في تونس ألا وهو الحزب الحر الدستوري الذي أسسه الثعالبي¹⁵ بصفة عضو باللجنة التنفيذية وأمين عام للقلم العربي بها وكان ذلك سنة 1920. واصل أحمد توفيق المدني كفاحه بكل الوسائل وعلى جميع الأصعدة وأهمها الصحافة التي أدرك تأثيرها على الناس وفي سياسة المستعمر. يقول: " كانت حياتي الصحفية بتونس طيلة المدة التي كنت فيها على رأس الكفاح حياة شرف وفخار لا أشهد أنا وحدي بهذا بل يشهد به التونسيون جميعاً ويشهد به المطلعون من رجال الشرق والغرب"¹⁶. وبالإضافة إلى موقعه في الحزب الحر الدستوري دعم أحمد توفيق المدني بكل ثقله مادياً ومعنوياً الحركة النقابية التي أسسها محمد علي الحامي¹⁷ وكانت حركة نضال هي أيضاً ذات بعد اجتماعي أولاً وسياسي ثانياً. لقد ضاق صدر "سلطة الحماية" ولم تعد قادرة على ما يبدو على إسكات صوت أحمد توفيق المدني وفكرت في التخلص منه فكان قرار إبعاده نهائياً عن التراب التونسي. وفعلاً جاء الإبعاد الذي لم يتوقعه أحمد توفيق المدني بالفضاضة والعنجهية التي ميزت سياسة الاستعمار، وكان ذلك على الساعة الثانية من يوم السبت خامس جوان 1925. يقول أحمد توفيق المدني: " كان مسيو كامبانا ينتظرني في مكتبه... وأخذ يجاسيني بإطنا ب عن مآخذ قانونية تشمل أعمالي في الحزب وفي الشعب وأعمالي في جامعة عموم عمال تونس... وما نشرته عن الريف... وناولني ورقة ممضأة من المقيم العام الفرنسي فيها الأمر بإبعادي من تونس

¹⁵ عبد العزيز الثعالبي ولد في 15 شعبان من عام 1293 هـ الموافق 5 سبتمبر 1876 م - وتوفي في أول أكتوبر 1944 م. هو زعيم تونسي سياسي وديني. يعتبر من القلائل الذين زاحوا بين السياسي والديني، وبين المحلي والإقليمي والعالمي في عملهم للتخلص من الاستعمار وظلمه والرفعة بالمجتمع والرفي به في الوقت ذاته. فقد كان في تونس قطبا ومناضلا بارزا ضد الاحتلال الفرنسي أولاً وضد أعداء الدين الإسلامي ثانياً. فهو كما يوصف بأنه داعية الإصلاح والتجديد والمقاومة الأمر الذي جعله عرضة للنفي والترحال في سبيل دعوته ومبادئه. ولد عبد العزيز الثعالبي في مدينة تونس بالجمهورية التونسية. جده عبد الرحمن الثعالبي المجاهد الجزائري الذي هاجر إلى تونس رافضاً العمل مع الفرنسيين الذين كانوا قد احتلوا الجزائر آنذاك. (المصدر: ويكيبيديا).

¹⁶ ص. 244. م. ج. 1.

¹⁷ جامعة عموم العملة التونسية هي أول منظمة نقابية تونسية. ظهرت عام 1924 ولكنها لم تعمر إلا بضعة أشهر، تمكنت خلالها من الانتشار بسرعة في العاصمة التونسية وفي منطقة بنزرت بالشمال التونسي، ووصلت إلى منطقة المناجم بالجنوب الغربي. من أبرز مؤسسيها محمد علي الحامي والظاهر الحداد وأحمد بن ميلاد والمختار الحميري. وجدت هذه الجامعة في بدايتها مساندة من الحزب الحر الدستوري التونسي ومن الحزب الشيوعي التونسي الذي كان يسعى لإضعاف نقابة الكنفدرالية العامة للشغل الفرنسية التي يهيمن عليها آنذاك غريمه فرع الحزب الاشتراكي الفرنسي بتونس. في مطلع عام 1925 أي بعد بضعة أشهر فقط من ظهورها تحالف ضدها الاشتراكيون والدستوريون والإصلاحيون، مما جعلها تبقى شبه منفردة أمام التبعات العدلية وبالفعل أحيل قادتُها على المحاكمة والنفي، بما قضى عليها. المصدر "ويكيبيديا".

حالا... وامتطيت سيارة شرطة... أخذت تنهب الأرض... إلى أن اجتزت الحدود فإذا بي أسلم كبضاعة إلى
كميسار البوليس بعناية" ¹⁸.

ولكن، ربّ ضارة نافعة، إذ لم يكن المستعمر على دراية تامة بشخصية أحمد توفيق المدني، إذ بعد يومين فقط
قضاهما في ضيافة أهل عنابة مكرما معززا، غادر أحمد توفيق المدني إلى قسنطينة التي يقول عنها وعن أهلها : "
وجدت العشرات إن لم اقل المئات من أهل "قرطة" الزاهرة قد جمعني بهم أيام الدراسة بين أساطين جامع الزيتونة،
أو اجتمعت بهم في حفلات المسامرات والمحاضرات المختلفة، ولولا إلحاح من والدي من جهة، ومن ذوي قرابتي
بالعاصمة الجزائرية من جهة أخرى ، ل كنت اتخذت من قسنطينة الفيحاء الزاهرة موطننا لي، ومن أهلها وأنجادهما
رفقاء في نضال جديد وكفاح مرير" ¹⁹ ومن هناك استعاد نشاطه ولكن في ظروف أخرى وبوسائل مبتكرة. و
تفاعلا مع قدومه إلى أرض الجزائر بلد الأجداد نشرت جريدة "النجاح" بيانا تحت عنوان "ضيف معتبر" قالت فيه
: "إثر ما بلغنا من خبر إبعاد الاستاذ أحمد توفيق المدني الكاتب للحزب الحر الدستوري والرابطة القلمية وصاحب
"تقوم المنصور" بتونس، حضيينا بوفادته علينا ببلاد قسنطينة فنزل لدينا ضيفا محترما، تمثل في شخصه جارتنا تونس
والنهضة التونسية والحزب الحر الدستوري وقد صادف تجلّة واحتراما بين أعيان البلاد" ²⁰.

بقي أحمد توفيق المدني في قسنطينة أسبوعا رأى فيه "كرامة العرب وأمجاد الاسلام وذكريات البطولات التي لا
يتجرأ على محوها التاريخ. "...وهو القائل أيضا : "وجدت العشرات إن لم اقل المئات من أهل "قرطة" الزاهرة قد
جمعني بهم أيام الدراسة بين أساطين جامع الزيتونة، أو اجتمعت بهم في حفلات المسامرات والمحاضرات المختلفة،
ولولا إلحاح من والدي من جهة، ومن ذوي قرابتي بالعاصمة الجزائرية من جهة أخرى ، لكنت اتخذت من
قسنطينة الفيحاء الزاهرة موطننا لي، ومن أهلها وأنجادهما رفقاء في نضال جديد وكفاح مرير" ²¹. كان الأسبوع الذي
قضاه أحمد توفيق المدني بقسنطينة حافلا بالنشاط واللقاءات مع العديد من المناضلين وكبار المشائخ وظهرت
بصورة جلية أهم عناصر أفكاره الاصلاحية كجزء لا يتجزأ من رؤيته الشمولية للنضال. لقد نضجت أفكاره

¹⁸ المدني، م.م.، ج1، ص. 337-335.

¹⁹ المدني، م.م.، ج1، ص. 340.

²⁰ المدني، م.م.، ج1، ص. 338.

²¹ المدني، م.م.، ج1، ص. 340.

بنضج تجربته التونسية التي كانت ثرية ومتنوعة الاهتمامات وها هو يبيلورها ويضعها في خدمة الحركة النضالية الجزائرية.

هذه بعض المعلومات عن المسيرة النضالية والسياسية لأحمد توفيق المدني وهي لا تغطي إلا جزءاً من آرائه وتوجهاته وأفعاله خلال المرحلة التونسية من "حياة كفاحي" وستليها أفكاره الإصلاحية في المجال الديني والاجتماعي لكونها جزءاً لا يتجزأ من مشروع نضالي متكامل.

2 آراؤه الإصلاحية : الإصلاح الاجتماعي والثقافي والتربوي

يقول أحمد توفيق المدني أنه خلق أثراً على نظم فاسدة كانت مفروضة على بلاده بحكم السيف والنار. أثراً على تقاليد بالية حطمتها الزمان ولم يحطمها أهلها²². "أثراً على من ادعوا يومئذ الزعامة، لم يريدوا من ورائها إلا تسنم صدور المجالس الجوفاء الخاوية التي لها صورة وليس لها محتوى والإحراز على ما تصبو إليه نفوسهم الدنيئة من مكاسب تعمر الجيوب وتخرب النفوس، ومن نفوذ لدى المستعمر المحتل، كانوا يرونه عظيماً وكنا نراه حقارة ومذلة وخضوعاً"²³. ثار أحمد توفيق المدني على كل ما اعتبره سبباً في الجمود الفكري. ففيما كان يحفز الطلبة على تغيير ما بأنفسهم كان بعض الأساتذة يسخرون منه وهو يسمعونهم قائلين: "دعوه فإنه مجنون يريد أن ينقض ما أبرمته يد الله، وإني لأذكر كما أذكر يومي هذا، أنني كنت أصرخ في وجوههم محتدماً صارماً : كلا إن يد الله لم تبرم إلا الخير والصلاح وإنما الوسط المنحل والجامعة المهلهلة وتفرق الكلمة والخضوع للمستعمرين وعدم الاستعداد لردّ العدوان خلافاً لما أمر الله ذلك هو الذي مكن العدو من رقابنا....والله سبحانه يقول : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"²⁴.

²² يلتقي المدني مع زعماء التيار الإصلاحي الذين عرفتهم الساحة الاسلامية خلال القرن 19 وبداية القرن العشرين وهذا دليل على مدى انتشار هذا التيار.

²³ م.م، ج1، ص. 6. والقصد من كلامه شيوخ الطريقة كما سيأتي لاحقاً ومن دون أي لبس.

²⁴ م.م، ج1، ص. 7. هذا الشاب الذي يجاهر بصوت الحق أمام من تهاون من أساتذته، لا يتجاوز عمره 12 سنة.

كان خاله من قراء مجلة "العروة الوثقى" ²⁵ التي كان يصدرها بباريس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وكان كلما خرج هذا الأخير من البيت اغتنم المدني وأولاد خاله وأولاد حالته فرصة خروجه ليأخذوا أعداد "العروة الوثقى" و"المؤيد" و"اللواء" لسان الحزب الوطني المصري ويتولون قراءتها بشغف لا يوصف. وفي سنة 1909 انتقل أحمد توفيق المدني من الكتاب إلى المدرسة القرآنية الأهلية التي قام بتأسيسها "فضلاء من التونسيين" وكان يديرها زيتوني هو محمد صفر. أنهى بها دراسته سنة 1913 وكان قد تلقى الكثير من العلوم : علوم الدين، النحو والصرف، البلاغة والرياضيات، الكيمياء والطبيعة ومبادئ اللغة الفرنسية... إضافة إلى دراسة القرآن مفسرا ميسرا. فكانت بداية تكوينه المعرفي جامعة شاملة. ثم دخل الجامع الأعظم جامع الزيتونة، ودخل المدرسة الخلدونية التي تعدّ تكميلية للدراسة الزيتونية فيما يتعلق خاصة بالعلوم الرياضية والتاريخ العام. أما بجامع الزيتونة فقد اختار لنفسه منهاج دراسة خاصا به لا يتقيد بصنف ولا يشارك في امتحان. يقول : "كنت أطلب العلم لأجل العلم لا لأجل منصب" ²⁶. وهو ما يؤكد نزعتة التحررية ونفسه الثوري وقوة شخصيته.

كان شديد التأثر بالمصلح والزعيم السياسي عبد العزيز الثعالبي. "فمن سمعني وأنا أخطب وطالما خطبت، فكأنه يسمع الثعالبي في لهجته ونبراته" ²⁷. هذا التأثر بالشيخ لم يمر دون أن يترك أثره في الشاب المتقد حيوية أحمد توفيق المدني. فجاءت أفكاره الإصلاحية وربما الثورية آنذاك متقدمة على ما هو سائد في عصره كدعوته إلى تعليم المرأة مثلا. لقد كتب مقالا في جريدة الفاروق الأسبوعية وكان عمره 15 سنة وبضعة أشهر عنوانه " دعوة إلى الواجب، أو المرأة التونسية والتعليم " وبدأه هكذا : " المرأة التونسية كغيرها من نساء العالم إذا ما وجدت علما صحيحا وتربية اسلامية بحجة يكون لها دور مهم في الحياة الاجتماعية. لكن قضى الله على هذا القطر التعس بأن تكون نساؤه مسابقات للرجال في ميادين الجهل والفساد" ²⁸. وفي مقال رابع له في نفس الجريدة كتبه بتاريخ 27-12-1914، يقول مبينا أسباب التخلف قائلا: " أولها إننا تركنا شعائرنا الدينية المطهرة ونواميسها المحمدية الغراء وثانيها : أننا خالفنا عاداتنا القومية وثالثها: أننا ضيعنا لغة آبائنا وأجدادنا، لغة ديننا الاسلامي. " أما الحلول فأوردها كما يلي : " أولها : تعليم البنات... ثانيها: تعليم اللغة العربية ونشرها في جميع أنحاء القطر وذلك بإنشاء

²⁵ العروة الوثقى هي مجلة أنشأها جمال الدين الأفغاني مع محمد عبده موجهة للأمة الإسلامية داعيا فيها الأمة إلى التوحد. صدر أول عدد يوم 13 مارس 1884 / 15 جمادى الأولى 1301.

²⁶ م.م. ج.1، ص. 62 .

²⁷ م.م. ج.1، ص. 49 .

²⁸ م.م. ج.1، ص. 77 .

مدارس خصوصية أو على الأقل كثرة مزاولتها بالمدارس الأهلية وثالثها : إحياء العلوم ونشرها بين كافة طبقات الشعب ورابعها: ترك الكسل والإقبال على تعلم الصناعات مهما كانت، فالصناعة قد أصبحت قوام حياة العالم"²⁹ . . وهي دعوة للأخذ بزمام تقدم الشعوب واكتساح ميادين العلوم والاختراع ، تنم عن وعي مبكر وفكر متوثب نحو المستقبل دون انبتات أو حياد عن الأساسيات.

تھياً أحمد توفيق المدني لاجتياز امتحان البكالوريا وهو في السجن واجتهد في دراسة : نحو وصرف - كيمياء - طبيعة - فيزياء - رياضيات - جغرافيا - تاريخ - فلسفة - آداب - موسيقى - الانسان والحيوان - النجوم... إلخ... إضافة إلى حفظ القرآن و دراسة تفسير الزمخشري. وقد أفادته تجربة السجن إذ صب كل تركيزه على الاستزادة من جميع العلوم التي كنت تدرس بالجامع الأعظم وخرج منها أكثر نضجا وأكثر إماما بمتطلبات النضال ضد الاستعمار الغاشم. وبعد الخروج من السجن أقبل المدني على حلقات جامع الزيتونة العلمية "أعترف من معيها، كما يقول، كل عذب زلال وأعزز بالسماع ما استوعبته العين من الكتب المتنوعة في العلوم المختلفة"³⁰ . وكان شديدا في موقفه الراضية للأفكار والممارسات السائدة آنذاك في أوساط الطرقية. لقد جاء في مذكراته لما بدأت حكومة الاستعمار تفكر في الاستيلاء على أرض الأوقاف الخاصة وإلحاقها بإدارة الاستعمار وتوزيعها ما يلي : " عندئذ رأى الذين يعيشون من موارد الأوقاف الخاصة الخطر ماثلا أمام أعينهم وفيهم كثرة وافرة من مستثمري القبور، شيوخ الطرق التي يدعوها باطلا بأنها "الطرق الصوفية" فأخذوا يقتربون من الحزب ويربطون حبلهم بحبله على أن يدافع عن الأوقاف الخاصة، دفاعه عن بقية حقوق الأمة"³¹ . لم يكن موقفه هذا منعزلا بل سيتكرر في عدة مواضع من مذكراته ويلتقي فيه مع العديد من مصلحي زمانه. لكن فكره البراغماتي جعله وأصحابه في الحزب يستغلون الفرصة لمحاولة فك الارتباط بين بعض مشائخ الطرق وسلطات الاستعمار. كما وجد الحزب الفرصة سانحة أيضا لبث دعايته وبسط نفوذه على طبقات من الشعب كانت إلى ذلك الحين بعيدة عن الحزب لا تسمع إلا كلمات "سيدي الشيخ" ولا يلذ لها العيش إلا ببركات "سيدي الشيخ"³² كما جاء على لسان المدني. كما قاوم بشدة قانون 20 ديسمبر 1923 القاضي بمنح الجنسية الفرنسية للتونسيين الذين يطلبونها والذين تتوفر فيهم الشروط المطلوبة. " هنا شمرنا على ساعد الجد والجهاد، كما يقول، ونظمنا أنفسنا

²⁹ م.م.، ج1، ص. 79-80-81.

³⁰ م.م.، ج1، ص. 161.

³¹ م.م.، ج1، ص. 174.

³² نفسه.

تنظيماً دقيقاً واندفعنا في غمرة كفاح صادق، كنا مستعدين معها للموت... والأمر عندنا أصبح لا يتعلق بالسياسة فحسب بل أصبح يتعدى ذلك إلى الدين الذي هو ذخيرة الشعب وعدته وسلاحه... وأعلننا حرباً لا هوادة فيها وأصبحنا نحمل راية الدين باليمين وراية السياسة بالشمال"³³.

ولم يكن مشائخ الطريقة هم الوحيدين الذين استهدفهم أحمد توفيق المدني بل وجه سهام نقده أيضاً إلى بعض من مشائخ الدين الذين اعتبرهم متخاذلين في مواقفهم من سياسة المستعمر وأهمها قضية التجنيس ولم يناصروا الشباب أمثال أحمد توفيق المدني المتحمسين لدينهم. فهو القائل: " ما خاننا يوماً إلا كبار المجلس الشرعي... ويقول " مصابيح الظلام" الذين نصروا الظلام وقاوموا النور: نقول لكم صراحة إن التجنيس حرام وكفر... إنه ردة لا ريب في ذلك. إنما لا نستطيع إطلاقاً وبأي صفة من الصفات إعلان ذلك لا قولاً ولا كتابة... قلت محتجاً صاحباً أتخشونهم والله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين؟"³⁴.

كان ثمن هذا الحماس وهذا النضال المستميت من أجل الدين والوطن والحرية والعدل، إبعاد أحمد توفيق المدني من تونس يوم 5 جوان 1925. ومن حيث يعلم المستعمر أو لا يعلم، كان الإبعاد إلى الجزائر بلد الأجداد. أما المبررات فكانت كلها تؤكد مكانة الرجل في بيئته وتأثيره السياسي. لقد أبعد كما يقول: "من أجل عملي إلى جانب حركة العمال واعتقاد الحكومة أنني في أول الأمر اللبنة الأولى في إقامة هيكلها وكنت مؤيداً لها ومناصرها منذ تأسيسها إلى يوم الإبعاد ومن أجل الخطوة التي أصبحت أتمتع بها في كل الأوساط التونسية"³⁵. وهكذا وبعد يومين قضاهما في ضيافة أهل عنابة، ما هو أحمد توفيق المدني في قسنطينة يقضي أياماً سعيدة وإن لم تكن مديدة. أيام لم تتجاوز الأسبوع رأى خلالها من الرجال ما سرّه وتبادل معهم الأحاديث وتداول مع العاملين حول المناهج والمشاريع "ما جعل لذلك الأسبوع قيمة أشهر من العمل الصالح المجيد"³⁶. وكان أول من التقاهم في قسنطينة الشيخ مبارك المليبي ثم الشيخ المجاهد والمصلح الكبير عبد الحميد بن باديس. كما التقى بأناس آخرين كثير منهم معلم أحمد ومالك بن نبي، دون ذكر كل من التقاهم سابقاً بجامع الزيتونة المعمور³⁷. أمّا آخر من يذكر أحمد

³³ م.م.، ج1، ص. 279-280.

³⁴ م.م.، ج1، ص. 281.

³⁵ م.م.، ج1، ص. 292.

³⁶ م.م.، ج2، ص.7.

³⁷ " وهكذا وجدت نفسي في جامع الزيتونة مصغراً ". المدني، م.م.، ج2، ص. 10.

توفيق المدني أنه التقى بهم في قسنطينة : المولود بن الموهوب والدكتور موسى . وعن المولود بن الموهوب يقول المدني : " لو كان الملائكة يمشون على الأرض ويختلطون بالناس...لكان المولود بن الموهوب واحدا منهم لا محالة" ³⁸ .
وبالفعل لقد كان هذا الأخير، و حتى قبل ابن باديس ، أول من بشر بالإصلاح الاسلامي قولاً وكتابة وألّف بالخصوص أرجوزة ضد الطرقية وشيوخها. لكن عيب الرجل الوحيد- على ما يرى أحمد توفيق المدني- أنه "قبل الوظيفة الحكومي وتولى منصب الافتاء" ³⁹ .

لقد تعرّف المدني على مبارك الميلي أثناء معركة الكفاح بتونس وكان الميلي بعد دراسته بها كثير التردد عليها ويتصل بشيوخها وطلبتها ويحيط به في رحاب جامع الزيتونة الجم الغفير ممن سبروا غور مواهبه. وكان يقول كلما سئل عن الشعب الجزائري : "الشعب الجزائري روحيا بخير إنما الطرقية الفاسدة ترديه والاستعمار يبيده ويفنيه". ذكر أحمد توفيق المدني ما دار بينه وبين الشيخ الميلي حول الوضع الجزائري وكانت فكرة الميلي واضحة جلية : لا يصلح أمر الجزائر إلا بمحاربة الطرقية المظلة وتكوين المدارس العربية لكي تُسد الطريق في وجه الاتجاه الإلحادي الفرنسي. ورغم أن لهذه الفكرة بعض معارضيتها ⁴⁰ - وإن كانوا قلة- إلا أن من أيد الميلي كانوا أكثرًا وأهمهم على الإطلاق الشيخ عبد الحميد بن باديس. أما موقف أحمد توفيق المدني فسيأتي عرضه لاحقا.

عبد الحميد بن باديس هو أيضا من خريجي جامع الزيتونة. كان أحمد توفيق المدني كثير الإعجاب به. فهو القائل عنه : "كان الحادي عشر من ذلك الرعيل الأول الذي بعث به عمر بن عبد العزيز لهذا المغرب العربي يعلم الناس دينهم ويجدد إيمانهم ويمتد أخلاقهم ويهديهم سبيل الرشاد." ⁴¹ . لقد أصبحت دروس الشيخ عبد الحميد تجمع حولها التلة الفدائية الصالحة لا من مدينة قسنطينة وحدها بل من كل جهات الشرق الجزائري وأفراد من وسطه وغربه، " حتى أصبحت دروسه المختلفة تجاوز العشر ساعات كل يوم عامرة بمختلف علوم الدين، مكتظة

³⁸ م.م.، ج2، ص. 19.

³⁹ م.م.، ج2، ص. 20.

⁴⁰ يرى أحد من عارض فكرة الميلي ان الزوايا المختلفة فوق أرض الجزائر قد حافظت على الاسلام دينا وإن كان مشبعا بخرافات، وحالت بين الشعب وبين الانغماس في الالحاد والمادية. كما يرى أن الأوفق هو إصلاح الزوايا وإدخال روح النظام إليها واستعمالها أداة صالحة للنفع والارشاد. وكان ذلك بحضور أحمد توفيق المدني والشيخ عبد الحميد بن باديس.

⁴¹ م.م.، ج2، ص. 11.

بالنصائح والتوجيهات، مفعمة بروح قدسية كانت فيضاً ربانيا وإلهاما ساطعا ما منّ إله به إلا على القليل من عباده الصالحين".⁴²

كان منهاج الشيخ الميلي يتكامل تماما مع منهاج الشيخ عبد الحميد بن باديس. فكلاهما ضد الطريقة وكلاهما يرى الحل في إيجاد مدارس حرة تعلم الصغار وتنشئهم نشأةً صالحة. فمبارك الميلي يكون وعبد الحميد يدفع للميدان ولا يتم أحد العاملين دون عمل الآخر. لقد أثنى الشيخ عبد الحميد بن باديس على نجاعة دروس الجامع الأخضر الذي كان يدرّس به الميلي إذ يعتبرها قد غيرت حالة البلاد قائلا " كان الجهل سائدا والبدعة قائمة والظلال مخيما فإذ بهذه الثلة الصالحة من الطلبة الذين يرتادون دروسنا تبت الفضيلة وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتبين أمام الناس سبيل الخير والصلاح"⁴³. كما كان ابن باديس يعتبر أن الشباب الذي لا يزال لم تدنسه تعاليم فرنسا يظل مادة خاما يمكن إعداده للقضاء على الخرافات والأباطيل والتصدي بقوة لمخططات المستعمر.

أما أحمد توفيق المدني فيصف موقفه على كونه بين المنهجين. ولكن الأهم من ذلك ما أورده وفصله منهجيا في توصيف الحالة وجاءت معبرة عن خلاصة ما دار من نقاشات بين الحاضرين وكل من تحاور معهم أثناء إقامته في قسنطينة. لقد اشترك المدني مع كل المتدخلين في تشخيص الحالة التي كانت عليها الجزائر بسبب سياسة الاستعمار. فالقوانين الاستعمارية الجائرة لا تسمح بتكوين حركة سياسية واعية وهادفة إذ المستعمر لا يعرف الرحمة ولا الشفقة، يقتل الناس ويشرد القبائل عن أراضيها ويبطش بكل من حاول الكلام. كما أن الواقع الثقافي والاجتماعي متشعب ومعقد وتسوده الفوضى. إذ هناك انقسام واضح يشق المجتمع الجزائري يفصل بين الشبان المثقفين ثقافة فرنسية وبين إخوانهم "القلة" من الشبان المثقفين ثقافة عربية. وهؤلاء يجدون المقاومة من كلا الطرفين ، الفرنسيين وإخوانهم من الجزائريين دعاة التفرنس. أما الواقع الديني والاجتماعي فهو أيضا في حاجة ملحة إلى انتشاله من براثن السياسة الاستعمارية. إذ كونت فرنسا حولها سياجا ظنت أنه يحميها. سياج متكون - على رأي أحمد توفيق المدني - من شيوخ الطرق الصوفية خصوصا وهم يتمتعون بسلطان هائل على الدهماء كما يضيف إليهم رجال الدين الرسميين من أئمة المساجد وغيرهم. أما الخطر الحقيقي ، كما يراه المدني ، فيكمن في انخراط النخبة المفكرة من أهل المدن وكبار القرى في الانتخابات التي تنظمها سلطة الاستعمار من أجل فتات من المقاعد

⁴² م.م.، ج2، ص.12.

⁴³ م.م.، ج2، ص.13.

في المجالس البلدية والعمالية والمالية. فهذه الانتخابات التي لا تتم في شكل منظم بل بصفة فردية لا تزيد المجتمع إلا تشرذما ولا ينتصر فيها إلا من حاز على أحد الأمرين : المال و تأييد المستعمر.

اقترح أحمد توفيق المدني حلولا عملية جديدة وهو رجل الفكر والقلم والميدان لاقت كلها استحسان الحاضرين وخصوصا الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي اختلى به مرارا وكان يحدثه عن الوسط والمجتمع وعن "آفات الطريقة"⁴⁴ كما يقول. كما تدارسا أمر إنشاء صحيفة أسبوعية، وكان الشيخ عبد الحميد يرجو أن ينشيء أيضا مجلة شهرية يسميها الشهاب على أن يتولى المدني التحرير فيها دون قيود في مجال السياسة الداخلية والخارجية. ولعل أهم مساهمة من أحمد توفيق المدني تلك التي تمثلت في عزمه على التأليف والتصدي لما يروّج له الاستعمار وأدواته من أكاذيب كان الهدف منها بث الفرق في صفوف الشعب الجزائري وتشكيكه في تاريخه الأصيلة. فالدعاية الاستعمارية القائلة بأن البربر عنصر أروبي وأن المدنية الوحيدة التي عرفتها بلاد الشمال الأفريقي هي المدنية الرومانية وأن فرنسا جاءت لتواصل ما شرعت فيه روما وذلك من خلال الكتب المدرسية وما تنشره من بحوث، اعتبرها أحمد توفيق المدني أخطر ما يمكن أن يصيب الشعب والبلد. واستجابة إلى طلب من همبارك الملي و عبد الحميد بن باديس اللذان أكدا على أن الجهاد بالقلم لا يقل أهمية عن أي صنف آخر من أصناف المقاومة، قرر أحمد توفيق المدني وبالحجة والدليل أن يرد على هذه الإدعاءات قائلا : " وأخذت منذ تلك الليلة أفكر في إنشاء كتاب عن الموضوع... إلى أن أخرجت للناس كتابي الذي كان فاصلا بين الحق والباطل والذي كان نشره- والحمد لله- ضربة حاسمة قصمت ظهر المظلمين الكاذبين وأخذت أصواتهم إلى الأبد"⁴⁵. وجاء كتابه تحت عنوان " قرطجنة في أربعة عصور، تاريخ شمال افريقيا قبل الاسلام".

بعد أسبوع حافل بالنشاط واللقاءات والمشاريع الصحفية والتأهب للنضال، غادر أحمد توفيق المدني قسنطينة إلى مدينة الجزائر وبالقلب حسرة فما كان يوّد فراقها، وما كانت توّد فراقه⁴⁶. وهكذا تنتهي مرحلة من حياته النضالية لتبدأ أخرى عليها أشدّ قسوة بسبب طبيعة مخططات المستعمر للجزائر والجزائريين. ولكن قبل أن نختتم هذه اللوحة المقتطفة من مذكراته، لا بد من التأكيد على أن أحمد توفيق المدني ، الذي تفرس على تحدي الاستعمار وخبر

⁴⁴ م.م.، ج2، ص.21.

⁴⁵ م.م.، ج2، ص.19.

⁴⁶ م.م.، ج2، ص.22.

أساليبه من خلال تجربته النضالية في تونس والتي بدأها وهو لا يزال طفلاً ، كان دائماً يرى أن النضال السياسي جزء لا يتجزأ من العمل الإصلاحي الشامل. فالإصلاح عنده شامل أو لا يكون ومن ذلك النزول إلى الميدان وقيادة المظاهرات وتأطير الشباب وتوعيته وفضح أساليب المستعمر كلفه ذلك ما كلفه. كم أنه لا يفصل بين النضال في الجزائر وتونس والمغرب، فهو القائل " أنا مؤمن بوحدة المغرب العربي جنساً وديناً ولغة وأخلاقاً... فهل من عمل سياسي ممكن في هذه الأرض الجزائرية التي طال جهادها وشاعت وذاعت أمجادها، تربط بين القطرين ويوحد بين الجهادين ريثما نستطيع أن نتصل بالجزء الثالث، المغرب الأقصى...".⁴⁷ وهكذا فما على المؤرخ المغربي اليوم إلا المزيد من البحث في شخصية هذا المناضل المصلح والاهتمام بما تركه أحمد توفيق المدني من أثر مكتوب حتى نربط الماضي بالحاضر في وثبة ثابتة نحو بناء المستقبل.

⁴⁷ م.، ج2، ص.14